الشاعر وشهوة الإصلاح
قراءة في ديوان عبد القادر رابحي
(الصعود إلى قمة الونشريس)

د. صباح لخضاري
المركز الجامعي النعامة

يقول عبد القادر رابحي[1]:

من علّق المصحف فوق دهشة السيوفْ؟
من قاتل الحروفْ؟
من هجر النّبي عن حليب أمه الجميلْ؟
وأغلق الأبواب في وجه القصيدهْ؟
بوحي بسرِّك الرّهيب
يا أيتها الشوارع البليدهْ؟
من منع النّساء أن يلدن في أيلولْ؟
وعلّم الأميّ ما تقوله الجريدهْ؟

الملخص:

يعد الأدب بصفة عامة والشعر بصفة خاصة سلاحا من أسلحة التغيير والإصلاح، و له أثر فعال في تأديب النفوس وتعليمها، و شحذ هممها وتحفيزها على رفض كل فساد وجور، وحثها على تشرب المبادئ والمواقف الثورية الإصلاحية. ارتأيت وأنا أقرأ ديوان عبد القادر رابحي(الصعود إلى قمة الونشريس)، أن أتحدث عن تأثير قوة الكلمة وسلطتها في التغيير والتأديب،

خاصة وأن هذه التيمة ظاهرة في شعر رابحي بامتياز، كما أنها تعد قضية من قضايا الشعر الكوني في شموليتها الإنسانية الخالصة.

Résumé :
La littérature au sens général et la poésie en particulier font partie intégrante des moyens de changement et de réforme ; elles ont également un effet très efficace sur l'éducation et la discipline de l'âme humaine pour l'inciter à renoncer à toute forme d'injustice et de corruption afin de lui inculquer les valeurs et les principes révolutionnaires de la réforme. En lisant la collection des poèmes de Abdelkader Rabhi (la montée au sommet de Wencheris), nous nous évertuons à mettre en exergue le pouvoir du mot et sa grande influence sur le changement et la discipline notamment que cette caractéristique est très explicite dans la poésie de Rabhi. De plus, elle est parmi les sujets de la poésie universelle dans son rapport avec le pur humanisme.

المقدمة:

الكلمة بدء ونهاية، الكلمة موت وحياة، الكلمة خير، جمال وانبعاث، الكلمة شر وقبح، قوة وسلطة، قهر وجبروت؛ كما أنها أسر وجذب ودهشة؛ تحمل المتناقضات وتشكل في ذاتها تشاكلا وتباينا، لاعبة لعبة الهدم والبناء، مؤسسة سيرورة الدلالة اللانهائية المكثفة الظلال، تجرح وتكسر بانزياحاتها التراكيب والعبارات المبتذلة أو الروتينية، لتعدل الجرح وتجبر الكسر في تراكيب جديدة مدهشة قابلة للتجدد، للجرح والتعديل.

وعبد القادر رابحي الشاعر الجزائري الثائر، مسكون بولع الحرف الملغوم؛ يبحث في الكلمة عن فضاء للبوح بمكنوناته التي طالما اكتوى بنارها، للبوح بعشق الوطن، وما نحن فيه من الوهن؛ يقول في قصيدته " الضجيج":

قالت:

الأرض . مذ عهد آدم .

خاتمة المنافي...

....

والقلب مستودع للجراح القديمة

مستنقع للجراح الجديدة

والفارس العربي يضاجع كلّ مساءٍ هزيمته

ويغيّر كل صباح أناشيده الوطنية

في لذةٍ مشتهاة..

....

كيف أكتم كلّ الخصال التي بين قلبي

وهذا الوطن..؟

كيف أمضي إذنْ

مستقر الخطى

مستنير الجبينْ؟

وطنٌ من ترابْ

وطنٌ من حريرْ

وطنٌ كالكتابْ

وطنٌ كالسديرْ

وطنٌ لارتطام الضحايا

وسجادةٌ للملاذ الأخيرْ...[2]

سلطة الكلمة:

إن الكلمة هي سلطة الشاعر المسكون بولع التغيير الصالح، وكل كلمة " تشي بايدولوجيا قائلها " على حد تعبير باختين، كما أنها تشير إلى رؤيته

للعالم، وآماله وطموحاته المحاربة للوعي القائم، والمبشرة بالوعي الممكن، النظرة الاستشرافية المشرقة. يقول في قصيدته "الخميس مساءً":

قلت للنافورة البيضاء في تيهرت:
لا تستنزفي حبّي
كلانا يستبيح الماء
من يدري؟؟
و لك الأجراس في خاتمة الساحة
نصب الشهداء
أخبريني..
من بنى فوقك الأنواء؟
من علّمك الإصغاء؟
من أعطاك سر الماء؟
من خبّأ في أنهارك الحيرى انثيالات الوطن؟
....
كان نصب الشهداء
وطنا يمتصّ أسماء اللّذين استشهدوا..
في منتهى الساحة
لم تبق سوى نافورة بيضاء
تهذي بالبكاء[3]

لقد كان شللي يكرر دائما لازمة عرف بها في العالم " إني أحمل بين جوانحي شهوة لإصلاح العالم"[4]، و أصبحت من بعده لازمة متبناة من طرف

العديد من الشعراء والمصلحين، وكل المسكونين بهوس التغيير الفعال والهادف، ومن بين هؤلاء، الشاعر المصري صلاح عبد الصبور الذي قال:" لست شاعرا حزينا، و لكني شاعر متألم، وذلك لأن الكون لا يعجبني، ولأني أحمل بين جوانحي كما قال شللي، شهوة لإصلاح العالم"[5].

والقارئ لقصائد عبد القادر رابحي يجدها قصائد متألمة تنبئ عن ألم ناسجها، هذا الألم المذكي لحزن مستمر، دفين في أعماق الروح الشاعرة الحساسة والمنفعلة، والمحرك الفعال لحساسية الإدراك بالواقع الكائن.

فها هو يقول في قصيدته "مرثية شاعر":

جدّد أحزانك
واستعصم بوريد القلب
وفكّ لهم:
ما هم الشاعر أن تستيقظ جازية الأحلام
على وطن مفقود..
لكن الواحد منا
خبأ تحت سواد جدائلها ميلاد قصائده
ولهذا غنّى الشاعر للأحزان
وللضوء الموعود..[6]

وعبد القادر رابحي مؤمن بأن الكلمة هي السلاح الفعّال، لاستشرف واقع جديد، أو وعي ممكن، فإن لم يستطع ذالك في الحقيقة، يكفيه شرف الاطلاع عليه في عالمه المثالي الجميل، الذي تشرئب إليه كل النفوس المحبة للخير

والسلام والوفاء... فالكلمة هي سلاح الشاعر المدجج بهوس التغيير وشهوته؛ ومن هنا يكون الشعر عند رابحي يساوي الثورة، والجهاد.

لا تكتم غيظك يا هذا...

لا زلت بأعيننا ترقى..

أو شمّر عن كفن الأوطان،

و أيقظ فتنتها المخبوءة

من دمها نسقى...

من نافلة الشوق المغرورق بالذكرى

أن تسأل عن مدن في الحلم الأول بعد الألف تعيش

وتحسب أن صلاح الدين علاء الدين،

و تحلم متى يا بطلا تولد

تكبر

.....

يا هذا الشاعر صدقني ...

جرحي أو جرحك

إن نزفا شعرا ودما..

فسهام العاشق لم تبرح بعد الأبراج

ولم تمسس بشغاف مدائننا

هل يكفي الشاعر أن تهذي بالمجد متاحفنا؟

أو نجلس بالمقهى

نتندّر بالنكت المحمومة بالهم الشعبي

ونضحك ملء جوارحنا..؟

قد تحثل في الفنجان الغارق أسئلة تستوقفنا..

قد تنهزم الثورات بداخلنا..
فيشد البعض البعض
ونقتسم الأحزان مناصفة..[7]

الشعر بين الواقع و الرؤى:

لقد كان أفلاطون يؤمن أن مصدر الشعر علوي إلاهي، والشاعر بهذا مطلع على الغيبيات، ويستطيع رؤية ما لا يراه البشر العاديون، لذلك كل ما يقوله هو رؤى حقيقية، تتحقق في المستقبل، ذلك بأن الشاعر عند أفلاطون " كائن أثيري مقدس ذو جناحين، لا يمكن أن يبتكر، قبل أن يلهم، ويفقد في هذا الإلهام إحساسه وعقله وإذا لم يصل إلى هذه الحالة فإنه يظل غير قادر على نظم الشعر أو استجلاء الغيب، ... الشعراء و المنشدون لا ينظمون أو ينشدون القصائد الجميلة عن فن، ولكن عن موهبة إلهية، لذلك لا يستطيع أحد منهم أن يتقن إلا ما تلهمه إياه ربة الشعر... لذلك يفقدهم الإله شعورهم ليتخذهم وسطاء كالأنبياء والعرافين الملهمين، حتى ندرك . نحن السامعين . أن هؤلاء لا يستطيعون أن ينطقوا بهذا الشعر الرائع إلا غير شاعرين بأنفسهم، وإن الإله هو الذي يحدثنا بألسنتهم."[8]

ومن هذا المنطلق قد نجد عذرا للمتنبي الذي اعتقد يوما أنه نبي، فالشاعر يشبه النبي لأنه يحمل رسالة للمجتمع، ويسعى لتغيره وإصلاحه للأفضل؛ ويشبه المجنون/ العبقري لأنه يبشر بأشياء ورؤى غير موجودة، قد تتحقق في المستقبل، كما نجده بفضل هذه القوة التنبؤية التبشيرية يؤثر في السامعين ويسلب عقولهم مثلما يفعل الساحر الذي ينقل قلب السامع من حال إلى حال.

وقديما قال رؤبة:"

لَقَدْ خَشيتُ أَنْ تَكُونَ سَاحِرًا * راوِيَةً مَرًّا و مَرًّا شاعِرًا.

فاستعظم حاله حتى قرنها بالسحر."[9]

والجنون الذي نقصده ليس ذلك المرض السيكوباتي الذي يدل على الاعتلال النفسي للشخصية ومرضها ، وإنما هو جنون العبقرية، المتميز بالحدس وقوة الإدراك والملاحظة، الذي يمتلك صاحبه انفعالا دائما ،قلقا مستمرا ومزاجا متقلبا ، فأنت لا تعرف فترة غضبه من فترة مرحه، قد يعيش ألوانا من الانفعالات في لحظة واحدة، كما أنه يملك إحساسا قويا بتنبؤ الأحداث، ويستشعر الخطر ويشمه على مسافات بعيدة، وكأنه في هذه الحالة موصول الصلة بعالم الغيب مقطوع الحبل بعالم الحضور. لذلك يقال إن " الفنانين والفئران هم أكثر الكائنات استشعارا للخطر. ولكن الفئران حين تستشعر الخطر تعدو لتلقي بنفسها في البحر هربا من السفينة الغارقة، أما الفنانون فإنهم يظلون يقرعون الأجراس، ويصرخون بملء الفم، حتى ينقدون السفينة، أو يغرقون معها."[10]

ويقول شاعرنا مستدعيا شخصية بكر بن حماد الأدبية، ومستحضرا إياها من عمق التاريخ الجزائري، من أجل أن تشاطره الآلام والرؤى:

ربما نستبق الرؤيا

يسيل الحبر من مئذنة الأسرار

أو يتسع الإسمنت حتى يحتوينا

.....

ربما تشتعل الأسوار

كي تستنجد الأرض بنا في هذه الليلة[11]

ومن أسباب الحالة الجنونية وعدم الاستقرار النفسي عند الشاعر، هو ذلك الإحساس الفظيع بالغربة في المجتمع، لوجود بون شاسع بين ما يستشعره ويعيشه في عالمه الخاص وبين ما هو موجود في الواقع؛ وأيضا ذلك الصراع بين المتناقضات في داخله، وعدم إيجاد توازن منسجم بينها في نفسه الحائرة، فهو حائر بين سمو الروح ورفعتها وبين دنو المادة وانحطاطها، بين النورانية والترابية، بين المصلحة العامة والمصلحة الخاصة، بين حب البشرية جمعاء وخدمتها وبين الحب الذاتي الأناني... كما أنه يجمع بين الهدم والبناء، بين النار والماء، بين الجدب والرخاء، بين العقم والخصوبة.

ولعل عبد القادر رابحي الشاعر مسكون بكل هذه المتناقضات، لذلك قد يتهم بالجنون؛ نعم إنه جنون العبقرية والقلق الشعري الباعث للقصائد الطوال، التي قد تصدم المتلقي لأول وهلة، بصعوبة قراءتها؛ والراغب في فك شفرة رموز نصوص رابحي وفهم طلاسمها، والفوز ببعض ظلال دلالاتها، عليه أن يتسلح بالثقافة والصبر والأناة.

بل إننا نجد رابحي في ديوانه الصعود إلى قمة الونشريس" قد كتب قصيدة عنونها بـ" الشاعر المجنون" و أهداها للشاعر خليل حاوي . والإهداء محمّل بكثافة دلالية وسميائية تنير تأويل النص وقراءته . كعتبة بعد العنوان، يقول فيها:

أجمل شعر لم أقله بعد..

هو الذي ينط عند باب غرفتي القديم في الصّباح..

يوقظني من نومي العميقْ

يمسح عن جبيني العرق

أراه في المرآة

في المصباح
فوق غربة السرير..
يلعب فوق اللغة الحمقاء
حينما ينتابها الأرق...
يخبرني عن شاعر مجنون..
لم يحتمل فظاعة الهزائم الليليّة
أطلق في جبينه رصاصة
وغاب..
لم يرثه الأصحاب
عن وطن يموت كل ليلية بالسكتة القلبية...
أراه في عيون من سيولدون بعد الحرب..
يدجنون بالكلام
والقصائد الفضيّة
وبالدمى الغمّازة العينين
يولدون في النفق...
لكنني لا أستطيع أن أراه فوق دهشة الورق..
الشاعر احترق..
الشاعر احترق..[12]

الشاعر والتأمل في الحياة:

إن المتأمل في حالة الشاعر وأهدافه سيجده مسكونا برسالة التغيير بامتياز، ويرى أن حالته شبيهة بحالة النبوة في الانقطاع والتأمل والحزن، في التوحد والتفرد والحب الإنساني والإصلاح... "إن الفلاسفة والأنبياء والشعراء

ينظرون إلى الحياة في وجهها، لا في قفاها... وينظرون إليها ككل لا كشذرات متفرقة في أيام وساعات، ومن هنا فإن همومهم تختلط فيها الميتفريقا والواقع والموت والحياة، والفكر والحلم، وكثيرا ما تثقل وطأة هذه النظرة الكاشفة الثاقبة على نفوسهم، وينتابهم الشك في إمكان الإصلاح، ولذلك فإن في حياة كل شاعر أو نبي أو فيلسوف لحظات من اليأس المرير أو الاستبشاع الشامل للواقع و الطبيعة."[13]

يقول رابحي في قصيدته" حديث الابن الضال":

حملت ونشريس فاقتي

ومدن الله،

وثورتي المكتوفة اليدين،

حملت مطرا الصحراء،

غربة التوابيت،

الأعمدة البالية،

الألواح

.....

منكسرا أتيت

متعبا..

طرقت

من؟

هذا ابنك الأول عاد مثخنا بكيمياء عطش الإنسان للأرض

.....

هذا ابنك الأول عاد مثخنا بزلة السنين.[14]

لذلك يعتبر الحزن . بالإضافة إلى الحب و الفرح والموت.... باعثا عظيما على الإبداع وقدح أوار فن القول، وشحذ القريحة، فهو يدخل الشاعر عالما من التصوف والتأمل والرؤيا والزهد. ويرى عبد العزيز المقالح أن الفرح البهيج والألم الطاحن لهما الأثر البالغ في إشعال أوار القريحة الإبداعية، " وفي حالة فقدان الشاعر أو الفنان لهذين القطبين الفرح والألم، لا شك قد فقد دينامكية الإحساس والخيال ومن ثم أضاع القدرة على الكتابة أو التصوير أو الإيقاع."[15]

وعبد القادر رابحي يدرك جيدا هذا شاعرا ودارسا ناقدا؛ و لعله يؤمن مثلما آمن صلاح عبد الصبور بأن الشعر يقوم على" ثلاث مؤثرات هي الحب والحزن والموت ومادام هذا الثلاثي قائما فإن الشعر سيظل موجودا."[16]

يقول رابحي في قصيدته "المسافة الأخيرة ":

هيئ جراحك

هذه مرآتنا الأولى تغادر ظلها

ثم ابتسم...

لا ...

لن تغرك فورة الكلمات من أعماقنا

لن تبلغ الكلمات صوتك

أو صداك..

هيّئ جراحك

كي تحاصر مبتغاك...

.....

وهل اختفت من فصلك الوردي أحزان الخريف؟
هيّئ مسافتك الأخيرة للنّزيف..
ثم ابتسمْ
.....
قد تسقط الأحزان من أحزاننا
قد تسقط الأفراح من أفراحنا
قد تسقط الكلمات
من كلماتنا الأولى
فتجمعنا حنينا من رصيف...[17]

ويقول أيضا في قصيدة " أسفار":
في البدء كان الانتظار
كان التوجع نجمة تأوي إلى كبد السماء
.....
ومحطة الحزن الوحيدة في البلاد
صارت رماد.. [18]

من هنا يكون الشعر عند رابحي مرتبطا بالحياة، بل أعتقد أن رابحي من الذين وهبوا للشعر أنفسهم . وهم قلائل . حتى صار ارتباطه به ارتباط المريد بالشيخ والتابع بالمتبوع، والعاشق بالمعشوق، ورابحي الثائر المعروف بتمرده على كل ما يشل حريته ويقيدها، لا يرضخ ولا يرضا بالذل والخضوع إلا في حضرة سيده وآسره، السيد القاهر الشعر، لأن به تتحقق ذاته وحياته التي يرغب فيها ويطمح إليها.

والسمة الغالبة على خطاب عبد القادر رابحي الشعري هي مزجه بين خطابين: خطاب موجه للوجدان تبعثه الروح الشاعرة المحملة بكثافة عاطفية عالية، وخطاب موجه للعقل يبعثه الحس السياسي الثوري الرافض للواقع والطامح للأفضل، ليحقق فعلا تواصليا إبلاغيا وتداوليا ناجحا على مستوى الفكر والعاطفة.

في الأخير أقول، عندما تقرأ لرابحي فاعلم أنك تقرأ لتجربة عميقة في الشعر الجزائري المعاصر، تومئ بتجربة الشاعر الحياتية، إذ لولا تجربة الشاعر في الحياة وخبرته وفلسفته، لما تأسس تصوره العام لتجربته الشعرية واكتمل.

وعندما تقرأ لرابحي فاعلم أيضا، أنك أمام مجموعة كبيرة من التجارب الشعرية العربية والغربية، القديمة والحديثة والحداثية، وأنّك أمام ترسانة فكرية وثقافية كبيرة، جعلت نصوصه الشعرية محملة بثقل فكري وحضاري، أكسبها صعوبة معرفية، لذلك تجد القارئ العادي لا يستطيع استيعابها، بل نجد حتى القارئ من النخبة المثقفة قد يجد صعوبة في قراءتها، وتفكيك رموز لحمتها، إذا لم يكن مدججا بأسلحة ثقافية وتاريخية وفكرية وإجراءات تشريحية.

الإحالات و الهوامش

[1]- عبد القادر رابحي شاعر جزائري معاصر من مواليد 1959م بتيارت، له عدة دواوين منها: الصعود إلى قمة الونشريس، حنين السنبلة، على حساب الوقت.

[2]- الصعود إلى قمة الونشريس: عبد القادر رابحي، دار للغرب وهران الجزائر، ط1، 2004،ص21-24.

[3]- نفسه: ص28-34-35.

[4]- ديوان صلاح عبد الصبور: دار العودة بيروت1998 م، المجلد 3، ص135.

[5]- نفسه: ص135.

[6]- الصعود إلى قمة الونشريس: ص102.

[7]- نفسه:ص100.

[8]- النقد الأدبي الحديث: محمد غنيمي هلال، دار النهضة العربية، ط4، 1969م،ص29.

[9]- العمدة في صناعة الشعر و نقده: الحسن ابن رشيق القيرواني (ت463هـ) ت: مفيد قميحة، دار الكتب بيروت لبنان،ج1، ص140.

[10]- ديوان صلاح عبد الصبور م3: ص98-99.

[11]- الصعود إلى قمة الونشريس: ص52-53.

[12]- نفسه: ص95-96.

[13]- ديوان صلاح عبد الصبور م3: ص136-137.

[14]- الصعود إلى قمة الونشريس: ص73-74-75.

[15]- الشعر بين الرؤيا والتشكيل: عبد العزيز المقالح، دار العودة بيروت، ط1، 1987م، ص26.

[16]- نفسه: ص32.

[17]- الصعود إلى قمة الونشريس: ص103-105.

[18]- نفسه: ص89.

بحوث في السرد

المهيمنات الثقافية : كشف جدلية الأنساق